جسد المرأة وذهنيّة التحريم

عيسى مخلوف

لا بدّ من الإشارة، في البداية، إلى أنّ الخوض في موضوع المرأة في المجتمعات العربيّة اليوم هو ضرب من المغامرة، فهل يسمح الحيّز العامّ الآن بتداول هذا الموضوع بحرّية، وهل ثمّة مناخ ثقافي واجتماعي يتحمّل القراءة الموضوعيّة والعقلانيّة لبعض المواضيع الأساسيّة عندنا وفي مقدّمتها المرأة والدين، خاصّة عندما يكونان متلازمَين؟ السؤال الأوّل إذاً وقبل الشروع في الكتابة، هو التالي: هل يمكن الكاتب العربي، في هذه اللحظة التاريخيّة بالذات، أن يكتب ما يشاء ويخوض في الموضوع الذي يشاء، وما هي حدود الحرية المتاحة له؟ فالمجتمعات العربيّة لا تزال تعيش داخل الزمن الديني القاطع والجازم، القائم على ذهنيّة التحريم التي لا تحتمل النقد، بل التي تُكفِّر ويدفع تكفيرها أحياناً إلى العنف الجسدي أو الطرد أو الدعوة إلى فصل الزوج عن زوجته... ولقد ضاعفت هذه الذهنية أيضاً من تطويقها لحريّة القول والتعبير، فمع تراجع حركة النشر في العالم العربي وتراجع عدد القرّاء إلى واحدة من النسب الأدنى في العالم، بحسب ما جاء في تقرير التنمية حول العالم العربي لهذا العام، تزداد وتيرة مراقبة الكتب ومصادرتها لأسباب «سياسية وأمنيّة» حيناً، وحيناً آخر لأسباب «دينيّة وأخلاقيّة».

الكتابة عن المرأة إذاً، مثل الكتابة عن الدين، تنطوي على مجازفة. والموضوعان، الدين والمرأة

على السواء، من المواضيع الجوهرية التي يتحدّد، تبعاً لقراءتها ومعالجتها، مستقبل العالم العربي، وأوّلاً حضوره في العصر، كما تتحدّد قدرته على مواجهة التحديات المصيريّة الكبرى. ومن غير الممكن أن تستقيم مناقشة هذين الموضوعَين بدون الاعتماد على الفكر النقدي والبحث التاريخي، أي بصورة مدنيّة لا دينيّة. لكن هل أنّ مثل هذه القراءة ممكنة الآن؟ وإذا كانت ممكنة ومتاحة فهل لدينا الأدوات المعرفية اللازمة لتناولها، في مجالات العلوم الإنسانيّة كافّة، وبالأخصّ في تاريخ الأديان؟

إنّ المرحلة التي نعيشها اليوم أشدّ صعوبة وتعقيداً من المرحلة التي عاش فيها كتّاب وأعلام من أمثال قاسم أمين وهدى شعراوي وعلي عبد الرازق وطه حسين. لقد أظهرت الأنظمة العربيّة منذ نيل استقلالاتها الوطنية في الخمسينات والستينات من القرن الماضي أنّها مسكونة بالفكر المُطلَق وهي، عن طريق العنف الذي نبع منها والفراغ الذي ولّدته، هيّأت الظروف الملائمة للانغلاق والتطرّف، ولتحرّك الذهنيّات الأصوليّة على أنواعها. ضاعف من خطورة هذه الأنظمة والتنظيمات المواكبة لها أيضاً أو المتناسلة منها، استعمال بعض الدول الغربية لها وتسليحها ورعايتها طالما أنّ خطرها كان منحصراً في بيئاتها المحلية فحسب، لكن عندما شعر هذا الغرب، وفي طليعته الولايات المتّحدة، أنّ خطرها قد يتجاوز تلك الحدود، خاصّة بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، بدأ ينقضّ عليها، أو بالأحرى على بعضها، باسم «محاربة الإرهاب».

كان لا بدّ من هذه المقدّمة السريعة للقول إنّ موضوع المرأة لا ينفصل عن حركة المجتمع ككلّ، بل هو أحد المقاييس الأساسية لمعرفة مدى نموّه وإنسانيّته، أو مدى تراجعه وانكفائه. وسأحصر تناولي لهذا الموضوع في جسد المرأة بما هو محلّ اللذة والألم، وهدفاً أساسياً للاضطهاد والإقصاء وكيفيّة تمثّلهما في الطبيعة وفي بعض النصوص الذكوريّة الأولى، بدون أن أجرؤ، بالطبع، خاصّة في هذه المرحلة الحرِجة، على تسميتها بالكامل.

«بالوجع تلدين...»، هذه العبارة التي تطالعنا في «سِفر التكوين» ترسم الأفق الأوّل للمرأة وقدرها المحتوم. بشيء من الاشتفاء ترسمه وبشيء من الغضب الذي يشرح قلب الغاضب. ولا ندري كيف كان جسد المرأة قبل إطلاق هذا الحُكم. وهل كان ينسكب الدم شهرياً من جرحها الذي لم يندمل؟ ولمن ينسكب هذا الدم المراق الذي يسبق الحمل ويواكب الولادة، كرمز من رموز الحياة نفسها؟

موضوعياً، وقبل هذا الحُكم «الإلهي» المبرَم، كانت المرأة تعاني وتنزف. تنوجع النساء أثناء الولادة وبعضهنّ يموت، ومنهنّ من لا يزال يموت إلى اليوم. وحتّى بعد أن

يتوقّف النزيف الشهري تبقى المرأة خاضعة لمزاج هذا الجسد وتقلّباته، وهو ما ينعكس على نفسيّتها أيضاً... النظام الطبيعي لا تعنيه عواطف المرأة وأحاسيسها، كما لا يعنيه البُعد الأنثوي فيها. ما يعنيه منها، في المقام الأوّل، هو قدرتها على الإنجاب والدور الذي تلعبه في تأمين استمراريّة النسل. والطبيعة التي وضعت كلّ شيء في مكانه، لم تنسَ غشاء البكارة. لقد ميّزت به المرأة على وجه الخصوص. للمرأة هو هذا الغشاء وليس للرجل، بل هو ساعَد الرجل على الإمعان في التحكّم بجسد المرأة لقرون طويلة، ولا يزال عبره، في بعض مناطق العالم، يتحكّم بها حتّى الآن. أحياناً، في بعض مجتمعاتنا العربيّة وفي طليعتها الأردن، تُلاحَق المرأة لمجرّد الخروج مع رجُل أو النظر إليه من بعيد، وتُرتَكب تلك الجرائم الفظيعة التي اصطلح على تسميتها بجرائم الشرف. ويأتي التقرير الطبّي ليؤكّد، في أغلبيّة الحالات، أنّ الضحيّة لا تزال تحافظ على بكارتها. وهذا ما يعني أنّ غشاء البكارة وحده لا يقي المرأة من الموت بعد أن يصبح الثأر الأعمى هو الردّ الوحيد لِ «إعادة الاعتبار» وللدفاع عن «الشرف»، فتكتسي الجريمة عندئذ بُعداً أخلاقياً تحميه الأعراف والتقاليد والقوانين ذاتها. وما الذي يفسّر اندفاع الزوج إلى قتل زوجته، هذا إذا لم يقتلها أبوها أو أخوها، ما الذي يفسّر ذلك إلاّ صحو الوحش القابع في الأعماق، وهو مروَّض منذ سحيق الأزمنة على ازدراء المرأة وقهرها واحتقارها.

«بالوجع تلدين...» هو الحُكم الأوّل على المرأة الأولى. تحت برج الدم تولد، تُطرد من الجنّة وتموت. من هذه الدماء التي لا يُعرَف من أين تأتي وإلى أين، يبدأ الجسد الأنثوي ينسج خيوط أسراره، ومعها ثنائيّة الرغبة والنفور، اللذة والألم، الولادة والموت...

حتى لا يقع الرجل في السأم أوجد له «سِفرُ التكوين» المرأة. وهي من ضلعه. لكن هذا الضيف المؤنَّث الذي جاء ليملأ الفراغ ويلبّي حاجة كان هو السبب، بحسب هذا السِّفر، في تحويل النعيم جحيماً، فالمرأة لم تجنِ على آدم فقط بل على الجنس البشري بأكمله وهي التي دفعته نحو العدَم والموت. لولاها لكان الرجل ظَلّ في فردوسه سعيداً، حراً، نقياً، عارياً كحبّة الندى الأولى، لا يعرف المشقّة ولا الموت. لكنّ المرأة تحالفت مع الشيطان المتمثّل في الحية، الحيوان السامّ و«الأحطّ قدراً»، وكانت ولادتها، ولو من ضلع آدم، مرادفة للخطيئة والرياء والمكائد والشرّ. بعد تعيين العدوّ بالاسم وتحميله أخطاء البشريّة جمعاء، وبصورة جليّة لا تقبل الشكّ مهما عمل العاملون على التأويل والتبديل، كان لا بدّ من رسم خطّة لمواجهة هذا العدوّ، عبر الذلّ والاضطهاد والأسر والختان والرجم والقتل...

ومن المفارقة أنّ التي تؤمّن استمراريّة النسل هي المهدّدة باستمرار بالفناء. في

«ألف ليلة وليلة» تتمكّن المرأة من إنقاذ جنسها من النساء عندما تتمكّن من إنقاذ المَلك من السأم. من خلال الحكايات والمرويات تهذِّب روح هذا الرجل المجرم الذي يقتل امرأة كلّ صباح. غير أنّ الحكاية هنا لا تتطابق مع الواقع الذي لا يزال يقتلها، نفساً وجسداً، في الكثير من المطارح.

ولا يكفي الالتفات إلى موقف الأديان التوحيديّة من المرأة، ما قدّمته لها وما لم تقدّمه. فقبل هذه الأديان طالعتنا مواقف سلبيّة منها على لسان عدد من كبار الفلاسفة اليونان، وقبلهم في مختلف الثقافات والحضارات منذ الحضارة السومريّة...

في رسالته الأولى إلى أهل كورِنثوس جاء على لسان بولس الرسول: «الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل. ولأنّ الرجُل لم يُخلَق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجُل»... ومن رسالته إلى أهل أَفسُس: «أيّها النساء اخضعنَ لرجالكنّ كما للربّ»، «... النساء لرجالهنّ في كلّ شيء». ومن الرسالة الأولى إلى تيموثاوس: «لتتعلَّم المرأة بسكوت في كلّ خضوع. ولكن لستُ آذَنُ للمرأة أن تُعَلِّم ولا تتسلّط على الرجُل بل تكون في سكوت. لأنّ آدم جُبِلَ أوّلاً ثمّ حوّاء. وآدم لم يُغْوَ لكنّ المرأة أُغوِيَت فحصلت في التعدّي»...

ولئن كان موقف المسيحيّة يذهب أبعد من ذلك من خلال الدعوة إلى قهر الجسد وازدرائه وقمع اللذّة وكُره الذات ممّا يعني كُره الحياة نفسها وكُره العالم، من أجل عالم آخر ليس من هذه الأرض، فإنّها، أي المسيحيّة، مع بولس الرسول وآباء الكنيسة، خصّت المرأة برؤية واضحة محدَّدة. لقد توسّع بولس الرسول وآباء الكنيسة بمن فيهم أغسطينوس في تناول هذا الموضوع وعزفوا فيه على وتر واحد. وهكذا فإنّ المسيحيّة، بخلاف المسيح، نظرت إلى المرأة نظرة دونيّة تنهل من العهد القديم، وحمّلتها مسؤوليّة الخطيئة الأولى. وإذا كانت منحتها الأمل بالخلاص فذلك ضمن شروط محدّدة. فهي «سَتَخلُصُ، بحسب بولس الرسول دائماً، بِولادة الأولاد إن ثَبَتنَ في الإيمان والمحبّة والقداسة مع التعقُّل».

إذا كان هذا هو موقف المسيحيّة من المرأة، فإنّ موقف الإسلام ينهل من الرؤية ذاتها، فالمؤسّسة الدينيّة التقليديّة المحافظة عملت من المرأة شغلها الشاغل، واعتبرت أنّ جسد المرأة هو لإشباع الرغبات الجنسية للرجل، ونظرت إليها نظرة دونيّة، حتّى أنّ حجّة الإسلام الإمام أبا حامد الغزالي اعتبر الزواج نوعاً من الرقّ وأنّ «المرأة رقيق لزوجها»...

في الصفحات الأولى من روايتها «المحبوبات» الصادرة عن دار «الساقي»، تكشف الكاتبة العراقية عالية ممدوح عن طبيعة الزوج الشرس الذي لا يتردّد في ضرب زوجته.

وهذا الزوج، وهو عسكري، مثال لاستبداد الذَّكَر ومن خلاله السلطة. هكذا فالمرأة هنا منذورة لليأس، متروكة لقدرها، وقدرها هو الإهانة والضرب والذلّ. تقول بطلة الرواية: «لا أحد يلاطفنا كما يجب، الملاطفة نوع من العلاج». وفي مكان آخر من الرواية نقرأ: «... حين كنّا ننتظر أزواجنا بثياب السهرة إيّاها، ندري أنّنا بعد قليل سوف نُضرَب بالعصي والسياط». الضرب حالة قائمة، يأتي قبل السهرة أو بعدها، لا فرق. قبل المجامعة أو بعدها. المجامعة التي تصبح، في بعض الحالات، نوعاً من الاغتصاب. هكذا يصبح جسد المرأة مسرحاً لتفريغ المكبوتات على أنواعها: يجلدونها ويجامعونها «في آخر اليوم».

في الديانة اليهوديّة، ألا يشكر المتشدّدون من اليهود ربَّهم كلّ صباح لأنّه لم يَلدهم نساء، وأنّه «من الأفضل أن يُحرَق التلمود على أن تمسَّه يد امرأة؟»... يذكّرنا ذلك بالعبارة التي وضعها أوريبيدس على لسان ميديه: «وإذا لم تكن النسوة منذورات للخير، فإنّ خبرتهنّ بالشرّ مشهود لها».

قد يكون بولس الرسول أعطى المرأة حقوقاً لم تكن لها في القرن الأوّل الميلادي، كذا الحال بالنسبة إلى الإسلام في القرن السابع، لكن الأمر يختلف الآن إذا ما أخضعنا قراءة موقف الأديان التوحيديّة من المرأة لقراءة مدنيّة تأخذ في الاعتبار التحوّلات التي طرأت على العالم في الألفي سنة الماضية. وإذا كان ذلك بالأمر الممكن في بعض مجتمعات العالم، فلماذا لا يستقيم في المجتمعات العربيّة، فلا يستمرّ تطويق المرأة ومحاصرتها وعدم منحها، باسم القوانين والشرائع المقدّسة، أبسط حقوقها المدنيّة والقانونيّة. هذا لا يعني أنّ المسألة في متناول اليد، بل هي تتطلّب كفاحاً طويلاً. ذلك أنّ المرأة في الغرب، وحتّى في فرنسا التي شهدت ولادة عصر الأنوار والفكر النقدي، تأخّر إعطاؤها الكثير من حقوقها فكان عليها مثلاً أن تنتظر حتّى العام ١٩٤٥ لتنال حقّها في الاقتراع. ولم يؤتَ لها ذلك لولا انخراطها في الحياة العمليّة ولولا الدور الذي بدأت تلعبه في الحياة الاقتصادية منذ نشوء الثورة الصناعيّة وخاصّة بين الحربين العالميّتين.

ولا نظنّ أنّ معركة المرأة في الغرب قد انتهت، فهي لا تزال، وعلى الرغم من الحقوق التي حصلت عليها، منتهَكَة في الذهنيّة التجاريّة. نحن هنا أمام صورة للمرأة يفرضها الإعلان، داخل البيت من خلال ما تبثّه الشاشة الصغيرة، وكذلك في الشارع وفي الساحات العامّة. وتتمثّل هذه الصورة في تشييء جسد المرأة وتسليعه وتوظيفه في لعبة البيع والشراء، وفي رؤيته من زاوية المردوديّة المادية. وهكذا فإنّ ما يُعطى من حقوق للمرأة يقابله سلب لهذه الحقوق، حتّى ولو على المستوى الرمزي، عبر

تحقير صورتها وحصرها، هي الأخرى، في الغريزة الجنسيّة.

أعود إلى النصوص الأولى لأقول إنّ بعضها أسّس للحقد على المرأة وكرّس سلطة الذكَر الفظّ عليها، وترك أثره، أي بعض تلك النصوص والتعاليم، على مئات الأجيال وملايين البشر. حتّى أنّنا نتساءل عمّا إذا كانت الذهنية الذكورية الواقفة وراء تلك الأدبيّات تريد أن تقول إنّ الحياة كم تبدو أكثر مرحاً وسعادة لو كان ثمّة طريقة أخرى للولادة غير التي تمرّ عبر بطن المرأة. على أيّ حال، ألا تَحصر تلك الذهنيّة المرأة وتُحاصرها في وظيفتين اثنتين: الإنجاب والمنزل بما في ذلك خدمة الزوج وإشباع رغباته؟

ضمن هذا المناخ العامّ لا مكان فعلياً للمرأة، وإذا ما انوجدت فبوصفها مملوكة وتابعة وفي موقع القاصر دائماً حتى لو أصبحت أمّاً وجدّة. أمّا مكانها ففي الانكفاء وفي الداخل. الداخل هو للمرأة، أي لها أن تكون داخل المنزل فحسب، أمّا الخارج، أيّ كل ما هو خارج المنزل، أيّ العالم أجمع، فهو للرجل. حتّى المنزل، ضمن الرؤية العربيّة والإسلاميّة، فهو مصمَّم بطريقة هندسيّة تأخذ في الاعتبار وجود الأنثى، «هذا الكائن الغريب»، وضرورة حجبه عن الخارج. هكذا يصبح المنزل نفسه، هو الآخر، حجاباً. إنّه حجاب كبير يحاصر المرأة. حتّى طريقة هندسته (الانفتاح نحو الداخل/ الانغلاق على الخارج) تذهب في هذا الاتجاه وهذا ما يستحقّ دراسات قائمة بذاتها.

لا العين ينبغي أن تراها ولا هي ينبغي أن ترى، وإذا ما رأت فمن وراء حجاب، أي بطريقة موارِبة، محدودة، تساعدها على رؤية الجزء المجتزَأ لا الكلّ المكتمل. (هذا الموضوع، أي كيف ترى المرأة العالم من وراء الحجاب، يستحقّ الدراسة أيضاً، كما تستحقّ الدراسة المعمّقة نظرةُ الأطفال إلى أمّهاتهم المحجّبات والصورة التي يمكن أن تنبني في أذهانهم عنهنّ).

الحجاب لا يمنح المرأة المدى اللازم للنظر بِحُرّية وفي الاتجاهات كلّها. يطوّق العين ويحدّ من اتساعها، بل ومن تَواصلها مع العالم المحيط بها، ومع الفضاء الخارجي وصولاً إلى أبعد الكواكب والنجوم. «لا أستطيع أن آمل/ بأن ألمس السماء بذراعيّ»: هذا البيت من الشعر يعني أنّ كاتبته الشاعرة الإغريقيّة سافو، كانت تريد، بعد أن رأت السماء بعينيها، أن تلمسها بذراعيها، وفي هذا توق إلى التجاوز. تَجاوز المصير البشري المحدود، في الزمان والمكان. إنّه أيضاً تعبير عن الحاجة إلى الاتساع، في محاولة لأن نكون أكثر ممّا أوتي لنا أن نكون. لنحظى بملامسة الأبعد فينا والأعمق.

الحجاب ليس بِلباس. اللباس لتغطية الجسد، أمّا الحجاب فلتغطية الجسد الذي أصبح، في عين الآخر، «عَورة». تحجيب المرأة هو تحويلها إلى مجرّد كائن جنسي،

وهو حصرها في الغريزة الجنسية وما يمكن أن تولّده عند رجل لا يستطيع النظر إليها إلا من هذه الزاوية.

المرأة المحجّبة غير مرئية، إذاً هي غير موجودة. لأنّ النظر لا يكشف فقط عن الخارج القريب أو البعيد، بل يدلّ أيضاً على وجوده. مفهوم النظر الذي صاغه جان-بول سارتر في كتابه «الكائن والعدم» يشير إلى أهمية دور الآخر الذي ينظر إلينا، إذ «يكفي الآخر أن ينظر إليّ لأكون ما أنا عليه»...

الحجاب هو ارتداد إلى داخل الخوف نفسه. أي أنّ الرجل الذي يخاف من المرأة ويدفع إلى تحجيبها، يجعلها هي نفسها تخاف. من الحياة تخاف ومن الآخرة. الحجاب ليس فقط قطعة قماش تغطّي الرأس والجسد حتّى القدمَين، أو الرأس والوجه معاً، الحجاب هو أيضاً ذهنيّة وسلوك وموقف. من هنا فإنّ رقعته الآن تتّسع لتغطّي المجتمع بأكمله.

إنّ المجتمع الذي يقبل بتحجيم نسائه ويحاصرهنّ بالحجاب وبطبيعتهنّ البيولوجيّة ذاتها هو مجتمع مجمَّد ثقافياً، تتآكل الرجل فيه فكرة الجنس بأكثر تصوّراتها واستيهاماتها رُعباً وغرابة... إنّ خوف الذكَر من أن تُشتهى زوجته يخفي أيضاً خوفه من نظرته هو نفسه إلى المرأة التي يصبح وجودها مصدر تهديد له. يرغبها ويشتهيها لكنّه يريد قتلها في آن واحد، كشهريار. يأخذها متى يشاء ويرميها متى يشاء. لعبته هي، تتحوّل في عينيه إلى شيء معيب ينبغي أن يخفيه ويتستّر عليه.

غير أنّ أخطر ما في الموضوع هو حين تتماهى صورة المرأة عن نفسها مع صورة الرجُل لها، فتَقبل هي ذاتها بالحجاب، وتذهب إليه راضية مطمئنّة، وهي مُقبلة عليه أكثر فأكثر في عالمنا العربي في الوقت الراهن، وحتى قبل أن تبدأ تظاهرات النساء في بعض العواصم العربيّة ردّاً على القرار الفرنسي المتعلّق بالحجاب.

لا بدّ من التنبّه أيضاً إلى الفرق القائم بين إقبال المرأة البالغ على ارتداء الحجاب، ودفع الفتاة القاصر إلى ارتدائه...

من الأزمنة القديمة دائماً. من زمن الأساطير السابق لزمن الأديان، ولمرحلة ما بعد الأديان، لا يعني جسد المرأة ذاته بقدر ما يعني تاريخ البشريّة جمعاء. منذ البداية، قبل العاطفة والحبّ وبعد انقضائهما. منذ أن كان رجل ما قبل التاريخ يضاجع المرأة مضاجعة الحيوان للحيوان، أي بصورة محض غريزيّة. يضاجعها ولا يعنيه ما إذا كانت راغبة في مضاجعته. فهل يا ترى ابتعدنا كثيراً عن هذه الصورة؟

لقد لعبت المؤسّسة الدينيّة التقليديّة دوراً كبيراً في تغذية الحقد على المرأة والنظر إليها بوصفها كائناً جنسياً خطِراً يثير الفتنة والغرائز، وهذه الرؤية الأبويّة الاستبداديّة

التي ترقى إلى عصور ساحقة تجد مرجعيّتها وسندها في التشريعات المختلفة التي تتعارض مع مواثيق حقوق الإنسان الأوّليّة. وهي، هذه الرؤية أيضاً، تتحكّم في المجتمع ككلّ وبالأخصّ في المرأة، سواء كانت أمّاً أو زوجة أو أختاً أو ابنة. من هنا، فنحن لا نعيش في الزمن الديني فقط، بل أيضاً في ما يمكن تسميته بالصَّرع الديني. الخائفون المذعورون هم أنفسهم الذين يزرعون الخوف في النفوس.

وما كان للمتشدّدين الدينيين أن يلعبوا هذا الدور، ويستبيحوا الإنسان في حياته، لو لم يكن المناخ السياسي السائد، في الكثير من الدول العربيّة، مواتياً لذلك، وحارماً المرأة من أبسط حقوقها المدنيّة ومن قوانين الأسرة والأحوال الشخصية.

تشير الكاتبة والباحثة المصريّة فريدة النقّاش في كتابها المهمّ «حدائق النساء (في نقد الأصوليّة)» إلى مسؤوليّة النّخب السياسيّة العربيّة ومعها الحركات المتطرّفة والمتشدّدة دينياً في ترسيخ النظرة الدونيّة للمرأة. وتعتبر فريدة النقاش أنّ بعض الحركات الإسلاميّة السياسيّة «قوّة رجعيّة معادية للمرأة وتدمّر منجزاتها»، «تهدر مبدأ المساواة وتضع المرأة في مرتبة أدنى بسبب جسدها». وتشير المؤلّفة أيضاً إلى مسألة مهمّة هي التعامل بحذَر مع الفكرة التي تربط بين الدين في حدّ ذاته والتخلّف الذي تعاني منه المرأة، وتقدّم مثالاً على ذلك الديانة اليهودية التي تحتقر المرأة وتنتقص من حقوقها وتمعن في إذلالها ومع ذلك فإنّ «وضع المرأة في القانون وفي الحياة العامّة في الدولة العبرية هو أكثر تقدّماً بما لا يقاس من وضعها في البلدان العربية والإسلامية»...

إذا كان التعاطي مع المرأة عموماً، وليس فقط مع المرأة العربية، يختصر جزءاً أساسياً من تاريخ البشرية ويكشف صراع هذه البشريّة مع نفسها، فكيف نتعاطى نحن اليوم مع المرأة عندنا؟ وكيف نواجه هذا الموضوع إذا لم نضع أزمة تَعاطينا مع المرأة في سياقها العامّ، السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافيّ؟ إنّ النظرة المريضة إلى جسد المرأة، والتي حكمت المجتمعات العربيّة، أجيالاً وقروناً، ينبغي التخلّص منها، بل ينبغي تخليص الرجل والمرأة على السواء من الذهنيّة الذكوريّة التي تطبع المجتمع العربي برمّته، وإعطاء المرأة حقّها في الحياة، في الهواء والشمس، وإلغاء أشكال التمييز ضدّها. والحاجة إلى التغيير هنا ليست فقط حاجة إنسانيّة وأخلاقيّة، وإنّما هي أيضاً حاجة اقتصادية واجتماعية وتنموية، وتلبية هذه الحاجة بوجهَيها الإنساني والتنموي باتت مسألة ضروريّة ومُلِحّة وإلاّ ظلّ العالم العربي والإسلامي خارج العصر وخارج العالم.